العالـم الفكـري للإمـام شـرف الديـن
اسـتناداً إلـى تصانيفه

الشـيخ د. جعفـر المهاجـر

كتـب الإمـام شـرف الديـن رضوان الله تعالى عـليه ، ما بين إيابه من " النجـف الأشـرف " إلى وطنه سـنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م ، ووفـاتـه سـنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م ، أي خـلال خمـس وخمسـين سـنة قمـريّـة ، ثـلاثـة وثـلاثيـن مُصنّفـاً ، ما بين رسـالة وكتاب . إثنـا عشـر منها طُبعـت مستقـلّة ، وبعضهـا غير مـرّة . وسـبعة عـشـر أحـرقـت أصولها فيما أحرقـه جـلاوزة الفرنسـيين مـن مكتبتـه فـي " صـور" سـنة ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م . وأربـع رسائل نُشـرت فصولاً في مجلّة (العرفان) في أوقـات متفرّقـة .

إن قـراءة ما وصلنا مـن تصانيف الإمام تقـف بنا عـلى عـالِـم مسـكون بقـلق مُقيم ، ممّـا تحمله الأيام من أخطار جسـيمة عـلى الإسـلام والمسـلمين . وفي هـذا السـبيل خاض معارك فكريّـة حامية عـلى أكثر من جبهة . ومجموع كُتبـه ، عـلى ما بينهـا مـن اختـلاف فـي الموضـوع ، يمكـن ، بـل يجـب ، مـن وجهـة نظـر نقـديّـة ، نظمهـا فـي خـيط واحـد ، هـو نشـر الوعـي عـلى تلـك الأخطار . وذلـك هـو أول خطـوة في الطريق الطويل إلى علاجهـا والتصـدّي لها . تلك هـي القضيّة التي وهـبهـا هـذا الكبير عمـره المديـد .

أ ول تلك الأخطـار ، بل هـو أعظمها وأصلها ومنشـؤها ، إنهاك العالـم الإسـلامي تحت وطـأة العسـف العثماني الرهـيـب . إنهاكاً شـمـل كـل جوا نب الحياة فيه ، إقتصادياً وسـياسـياً واجتماعـياً وفكرياً وثقافياً . فلما وقعت الحرب العالميّة الأولى سـقط البناء الإسـلامي بأكمله ، سـقوط بناء آيـل للخـراب ، فلما اهـتـزّت الأرض من تحته ، لم يكـن يملك من عناصـر القـوّة والتماسـك شيئاً . وهكذا تمخّضـت تلك الحـرب عـن أسـر دار الإسـلام بأجمعها . بحيث أنها في نهايتها لـم يكـن هـنـاك ذرّة تراب إسـلامي واحـدة يتمتّـع أهـلها عـليهـا بالحريّـة والاسـتقلال . كانت تلـك لحظة مأسـاويّة ، تفـوق أحلام أخـصـب المخطّطيـن الغربييـن خيالاً منـذ الغزوات الصليبيّة .

ثانيهـا ، وهـو من مضاعفات الأول ، انفجـار القضيّة الفلسـطينية ، بعد عقود من التربّـص والعمل السـياسـي غير المكتوم للمنظمات الصـهيونيّة ، فـي سـبيل جعـل " فلسـطين " وطناً قوميّـاً ليهـود العالم . وكـان السـبب المباشـر لانفجارها ، الهجـرات اليهوديّة الكثيفة إلى " فلسـطين " تحت رعايـة الاحتلال الإنكليـزي ، ووعـد بلفـور ، الذي صـدر عـن وزيـر بريطـاني . ولكـنه ، ولا ريب ، كان نتيجة لتفاهـم بين الدول الكبرى ، عـدا " ألمانيـا " . وما مـن شـك أن تقطيع أطـراف الدولة العثمانيّة ، وتقسـيم تركتهـا إلى دول صغـيرة عاجـزة ومسـلوبة الإرادة بالسـيطرة الإسـتعماريّـة ، قـد هيّـأ المناخ الملائـم للمشـروع الإسـتعماري ـ الصـهيوني ، لكي يسـير في المشـروع الصـهيوني ، دون أدنـى

اكتراث بالغضب الإسلامي العربي .

ثالثها ، تفرّق كلمة المسلمين . ليس بمعنى افتراقهم إلى مذاهب ، فهذا أمر واقع لا مجال فيه للعودة إلى الوراء . بل بمعنى أنهم يفتقرون إلى الموقف الواحد ، مقابل الخطر الذي يطال الجميع دون استثناء . وهذا أمر مختلف ، دخل إلى الإسلام من باب تكفير بعضهم البعض الآخَر وإخراجهم من الملّة ، واستباحة دمائهم لذلك . وفي ظلّ هذه الثقافة فإن الكلام على وحدة الكلمة تصبح غير ذات موضوع .

تلك هي أسباب القلق التي نراها حاضرة أكثر ما يكون فيما صنّفه الإمام شرف الدين أعلى الله مقامه . وبما أن تلك المصنفات كانت قد صدرت عنه أثناء سبع وخمسين سنة قمريّة ، كما قلنا فيما فات ، فمعنى ذلك أن القلق كان أمراً مُستحكماً على عقله ، بحيث يمكن حُسبانه رفيق عمره وشُغل حياته . إذن ، فنحن هنا أمام حالة مُتميّزة من التفكير والتأمل والبحث الرامي إلى غاية مُحدّدة بدقّة .

يلوح لي ، أيضاً استناداً إلى كُتُب الإمام ، أنه انصرف إلى إعداد نفسه إعداداً دقيقاً وشاملاً إلى النهوض بمُهمّة توحيد كلمة المسلمين ، ونفي الأوهام والاختلاقات التي تراكمت خلال العصور عن أسباب الفُرقة . وذلك بالاطلاع الواسع والدقيق على المذاهب فقهاً وحديثاً وكلاماً . ومعلوم أن هذا الباب من أبواب العلم يقع خارج المنهج الرسمي المُتّبع في النجف الأشرف. إذن ، فلا ريب في أنه انكبّ بنفسه سنوات طوالاً على كُتُب القوم ، حتى أحاط بها . ونحن نجد آثار إحاطته بفقه وحديث وكلام المذاهب في العديد من مصنفاته ، منها : تعليقتيه على صحيحي البخاري ومسلم ، وفي نقده الفني لهما في كتابيه (تحفة العلماء فيمن أخرج عنه البخاري ومسلم من الضعفاء) و (تحفة المحدثين فيما أخرج عنه الستة من المُضعّفين) وفي (المراجعات) و (النص والاجتهاد) و(مسائل فقهيّة) و (كلمة حول الرؤية) .

وغني عن البيان ، أنه إنما اختار هذا المسلك ، واختطّ لنفسه تلك الخطّة لأنها ميدانه الرئيس ، بوصفه عالماً مسلماً . وأيضاً لأولويّة تحريك آليّات الدفاع عند المسلمين ، في مقابل الخطرين الإستعماريين الداهمين اللذين ذكرناهما قبل قليل ، التي تعطّلها عوامل الفرقة .

في أيام الإمام كان هناك تياران ثقافيّان تكفيريّان فاعلان في العالَم الإسلامي :

أ ولهما : بقايا التيّار العثماني . فمن المعلوم عند العارفين بالتاريخ العثماني ، أ ن الأتراك العثمانيين بسطوا سلطانهم على قلب العالم الإسلامي مدّة ثلاثة قرون . حاملين معهم مشاكلهم الثقافيّة ، وفي مقدمتها أنهم في كل تاريخهم ، منذ أن دخلوا في الإسلام لم يعرفوا إلا المذهب الحنفي . أي أن الإسلام عندهم هو هذا المذهب ليس غير . الأمر الذي حكم علاقتهم بكل المذاهب الأخرى . ولكنهم حملوا للشيعة خصوصاً عداءً حادّاً ، لسبب سياسي هو نزاعهم مع " إيران " الصفويّة . وعندما عزم السلطان سليم الأول على

التخلّص من الشيعة ، الذين كانوا منتشرين في " الأناضول " وشمال " سوريّة " وأنحاء " لبنان " ، أ فتى له أحد فقهاء السلطان بوجوب قتالهم وجواز قتلهم وباسترقاق نسائهم وذراريهم ، سواء تابوا أم لم يتوبوا. وبهذه الذريعة ارتكب المذابح المهولة في " الأناضول " و سورية" ، كما دفع أحد الأمراء اللبنانيين إلى مهاجمة القرى الآمنة في " جبل عامل " ، حيث ارتكب مذابح مماثلة . وقد أشار الإمام شرف الدين غير مرّة إلى فتوى نوح الحنفي بذلك كلّه في تعليقاته على (الفتاوى الحامديّة) ، وذلك في كتابه (الفصول المُهمّة في تأليف الأمّة / الفصلان الثالث والتاسع) ، بوصف هذه الفتوى وأمثالها نماذج على المنهج التكفيري ومراميه وآثاره .

ومع أن الدولة العثمانيّة زالت من الوجود في أيام شباب الإمام ، ولكن ثقافتها وسياستها التميزيّة بقيت ، على مستوى الأداء السياسي في " لبنان " و " سوريّة " و " العراق " ، وعلى المستوى الفكري في أعمال غير واحد من الكُتّاب . وسنأتي على ذكر بعضهم بعد قليل .

ثانيهما : الوهّابيون ، الذين ظهروا في " نجد " ، كما هو معروف . والفكرة الأساسيّة في النّحلة الوهّابيّة تحرير الإسلام من الشّرك بالله تعالى . لكن الشّرك أخذ عنده مفهوماً جديداً . فعنده أن الشّرك شِركان : شِرك أكبر وشِرك أصغر . الشّرك الأكبر يوجب الخروج من الملّة ، ويُقتل صاحبه وإن تاب . ويدخل فيه مجموعة من المعاصي ، وبعض المسائل الكلاميّة الخلافيّة، بل وبعض المسائل الكونيّة . فمن الشّرك الأكبر: زيارة القبور ، والحَلف بالله كاذباً ، وقول أن ليس لله يد ، والاعتقاد بأنه لا ينزل من السماء ، وترك الصلاة حتى إهمالاً وكسلاً ، والقول بأن الأرض كرويّة وليست مُسطّحة ، والقول بأن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس . أمّا الشّرك الأصغر فإنه لا يُخرج من الملّة ، ولكن يُستتاب صاحبه فإن تاب تُرك . ومنه شِرك قصّ الشعر ، وشِرك الصّوَر ، وشِرك التماثيل ، وشِرك حلق اللحية ، وشِرك الرياء ، وشِرك النذور . إلى غير ذلك وهو كثير .

هذان التيّاران التقيا فيما يمكن أن نسميه ثقافة التكفير . التي دأبت على بذل أقصى النشاط في أوقات الأزمات الكبرى التي تنزل بالأمّة ، كما يحدث الآن . ممّا يخرج بسط الكلام فيه عن غرض هذه الورقة . وهو من الأمور المعلومة ، على كل حال .

وفي أيام الإمام ، يوم كان التحالف الإستعماري ـ الصهيوني يُعِدّ ويستعدّ للإنقضاض على " فلسطين " ، وإعلان الدولة اليهوديّة ، ارتفعت فجأة عدّة أصوات تكفيريّة ، وكأنما هناك من أعطاها أمراً فامتثلت له . أحمد أمين ومحمد رشيد رضا في " مصر " ، وإسعاف النشاشيبي في " فلسطين " وموسى جار الله في " باكستان ، ومصطفى الكيّالي في " سورية ، ومصطفى الرافعي في " لبنان " . كلّها أعلنت بشكل أو بغيره أن الشيعة خارجون على ملّة الإسلام . وذلك تحت عدّة شعارات ، منها أ ن لهم قرءانهم الخاص ، أو لأنهم نحلة ترجع إلى أعمال عبد الله بن سبأ ، أو لأنهم من أصول يهوديّة ، إلى غير ذلك من صنوف الأوهام والتخرّصات والبهتان . الأمر الذي كان سبباً مباشراً لنشوء حالة من التشنّج ، اخترقت عالم الإسلام من أقصاه إلى

أقصاه . ما يُثير الارتياب الكبير هنا ، أن هذا كلّه حصل في وقت كانت الأمّة في أمسّ الحاجة إلى التكاتف والتضامن والتعاضد للتصدّي للمؤامرة الاستعماريّة ـ الصهيونيّة الكبرى . فوضع الإمام ردّه الشهير على كتاب جار الله . كما ندّد في ختام كتابه (الفصول المهمّة في تأليف الأمّة) بأولئك الأربعة ، بوصفهم أنموذجاً صارخاً لسلوك أرعن وغير مسؤول ، يُفرّق كلمة الأمّة ، في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى وحدة الكلمة والعمل .

أختم كلمتي بالإشارة إلى ملاحظة أراها جديرة بالتنويه . هي التشابه المُدهش بين سيرة الإمام شرف الدين وسيرة الشهيد الثاني ، رضوان الله عليهما. فكلاهما عاش في فترة انفجر فيها التعصّب المذهبي أشرس ما يكون، وكلاهما أدرك خطورة ذلك وعمل على معالجته بما ملكت يداه ، فانصرف إلى الإحاطة بالمذاهب الأخرى حديثاً وفقهاً وكلاماً ، وحاور أعلامها لبناء حالة من التعارف ، تحلّ محلّ القطيعة المُزمنة ، وكلاهما دخل الأزهر . وأخيراً كلاهما لقي عسفاً من السُلطة في زمانه : الشهيد الثاني طورد من قِبَل السُلطة العثمانيّة ، والإمام شرف الدين طورد من قَبَل السُلطة الاستعماريّة الفرنسيّة وكبست داره وأحرقت مكتبته . ومضمون هذه الملاحظة إجمالاً دليل أصالة .

والحمــد لله